تضـــامن الأجيــال

فى تنمية التــراث الحضارى (*)

محمد فريد أبو حـديد

كلما وقفت على ضفة النيل العظيم فى مثل هذا الوقت من العــام (شهر أغسطس) ورأيت تيار ماءه المتدفق الأحمر بما حمل معه من الهدايا لهذه الأرض الطيبة من أقاصى الأودية والهضاب ، كلما رأيت ذلك تمثلت لى هذه الأمة المتدفقة من أقدم العصور ، فى تيارها المتدفق من الملايين الذين يحملون فى أنفسهم ما انحدر اليهم فى تراث الحضارة ، كما تحمل مياه النيل مـع تيارها المتدفق هداياه من الخصب والخير الذى ندين له بحياتنا ·

ان الانسان الواقف على الشاطىء حين يرى تيار ماء النهر لا يستطيع أن يلمح فرقا فيه بين حفنة من الماء وحفنة أخرى ، ولا بين قطرة وقطرة ، بل يرى الماء جميعا مشبعا بالطمى الأحمر الذى جاء به ليهب به لنا الخصـوبة والخير ، وهكذا الحال فى التيار الانسانى المتدفق الذى يحمل الينا من أقدم العصور ذلك التراث الحضارى النفيس الذى نعيش به جميعا ، ولا نستطيع أن نفرق فيه بين جماعة منا وجماعة أخرى ، ولا بين فرد منا وفرد آخــر ، فاننا نعيش فيه جميعا أو هو يعيش فينا جميعا ·

ان ذلك التراث الحضارى القديم المتجدد دائما ، هـــو الذى يضمنا ويجعلنا أقرباء متعاونين متفاهمين ، نتجه جميعا فى اتجاهات نفسية واحدة، ونتعامل معا على أسس واحدة ذات مثل عليا متجانسة ، وقيم أخـلاقية واجتماعية متماثلة ·

ان رحلة واحدة يقوم بها أحدنا فى القطار من القاهرة الى أسيوط مثلا،

(*) مجلة الثقافة ، العدد الثامن ، ١٩٦٣/٩/١٠ ، ص ١ ــ ٤ ·

تدلنا أكبر دلالة على حقيقة ذلك التراث الحضارى المشترك ، لأن القطار مايكاد يبدأ السير حتى نكون قد تشاركنا فى الحديث مع الجالسين قريبا منا ٠٠ حتى يخيل الى الناظر الينا من بعيد ، أننا أصدقاء متعارفون منذ مدة طويلة، فان نظرتنا الى الأمور تكون واحدة تقريبا ومقاييسنا تكون على أساس قيم واحدة ، نستمدها جميعا من معين واحد وهو تراثنا الحضارى المشتمل على ما لدينا من المثل العليا والقيم الاجتماعية والأخلاقية المشتركة بيننا ٠

وان بعضنا ليلقى بعضا فى بلاد أخرى غير بلادنا ، فاذا نحن نفتح أذرعنا وصدورنا ليلقى بعضنا بعضا فى شوق وان كنا لا نعرف أشخاصنا معرفة سابقة ٠٠ ولا نلبث أن نجلس معا كما لو كنا أصدقاء قدماء نتحدث ، ونتفاهم ، ونتبادل وجهات النظر فى ادراك واضح ٠٠ لأن كل واحد منا ينطق بما فى نفسه بحسب مثلنا العليا الواحدة ومقاييسنا الأخلاقية الاجتماعية الواحدة ٠

ونحن أبناء هذه الأمة فى وقتنا الحاضر ، نمثل جيلا واحدا يشتمك فيه أطفالنا من أعمار شتى ، وشبابنا من درجات شتى ، نساء ورجالا ، وفيه كهولنا وشيوخنا من أعمار مختلفة بين نساء ورجال ٠٠ والجميع يمثلون دفعة من التيار الانسانى المتدفق جيلا بعد جيل ، يحملون فى أنفسهم ميراثا واحدا استمر يتدفق من أقدم العصور متجها الى الأبد ليصب فيه كما يصب النهر العظيم الذى يهب لنا الحياة حاملا أمواجه النفيسة متجها الى الأبدية نفسها ، لتتحول هذه المياه الى بخار فأمطار على سنة الدورة الطبيعية المعروفة ٠

وكما أننا تلقينا فى أنفسنا ما نحمله من تراث الحضارة من الجيل الذى سبقنا ، فاننا كذلك نسلم ما حملناه من ذلك التراث الى الجيل الذى يأتى بعدنا ، فى دفعة جديدة من الانسانية المتجددة ٠٠ ثم يسلم ذلك الجيل ما يحمله الى الجيل الذى بعده ، فى تيار مستمر أبدى يجمع بيننا كأمة واحدة ٠

وكما أن التيار المائى فى نهرنا العظيم يستمد مياهه من الدفعات المتوالية

من الأمطار التى تتساقط فى كل جزء من حوضه ، ويحمل معه ما تأتى به هذه الدفعات المختلفة فى كل جزء من مجراه ، فكذلك تيارنا الانسانى يسير قدما من جيل الى جيل ، حاملا معه ما يأتى به كل جيل من الاضافات التى يضيفها الى التراث الحضارى العام الذى نتلقاه فى وقتنا الحاضر ٠

لقد عاش كل جيل من أجيال الأمة معا ، كما نعيش نحن اليوم معا ، منذ أقدم العصور وكان كل منها يواجه معا أحداث دهره ، ويتفاعل معها ، ويبعث بنتائج تجاربه مع تلك الأحداث كاضافات الى الرصيد العام الذى تلقاه من الأجيال السابقة لتكون هذه الاضافات زيادة جديدة الى التراث الحضارى المتجدد المستمر ، يزيد الأجيال المقبلة غنى وتجربة وقوة ٠٠ كل جيل يرسل مكونات كيانه النفسى فى الاضافة التى يزيدها على التراث الحضارى ـ يرسل فيها انطباعات مواقفه فى الحياة ـ انطباعات الاخطار التى واجهها وأفراح انتصاراته فيها أو أحزان هزائمه التى لحقت به وانطباعات الحكم التى خرج بها من المعارك التى خاضها ومغزى التجارب التى مر فيها مع الأحداث ، والمثل العليا التى تعلق بها ، ووجد فيها خلاصا من الأخطار التى كانت تهدد وجوده ، ووجد القيم الأخلاقية والاجتماعية التى ساعدته على تنظيم حياته ، ووجد فيها المقاييس المناسبة لها ليفرق بها بين الخير والشر والفضيلة والرذيلة ، وما هو حلال مباح من السلوك وما هو حرام منه ٠

فالأجيال المتعاقبة من الأمة هى التى بعثت الينا هذه الذخيرة الكبيرة التى نعيش بها لأنها تعيش فينا ، ولا نستطيع الا أن ننطلق فى حياتنا على هديها ، كل جيل يقدم ما لديه من آثار تجاربه ، سواء من أحزان المآسى أو مباهج الأفراح ، ومن المعانى الجديدة التى تلقاها من الأمم الأخرى ، ووجد فيها اضافات طيبة ، يزيد بها الثروة المدخرة من اضافات الأجيال المتعاقبة كل جيل مطالب بأن تكون له اضافات نفيسة يضمها الى هذه الذخيرة ، ولا يمكن أن يعتذر أحد الأجيال بأنه لم يستطع تقديم اضافة من عنده ، والا صدر عليه حكم التاريخ القومى بأنه كان جيلا مفلسا و هزيلا أو عقيما ، والنتيجة الأخيرة للمحصول الانسانى لكل شعب هو الكنز المدخر المحتوى على اضافات الأجيال اليه ٠

فهناك تضامن حتمى بين الأجيال عبر السنين الطويلة ليقدم الجميع الينا فى حاضرنا ما يساعدنا على أن نحتفظ بحرياتنا ومجدنا وعدالتنا وقوة مقاومتنا للاحداث وشعورنا بالتضامن والتعاون فى مواقف الحياة المختلفة ٠

ويطيب لى أن أورد هنا تلك الفقرات الموحية من الميثاق* ، العميقة الدلالة المشبعة بأسمى المعانى والمشاعر :

جاء فى الميثاق فى الباب الثامن ما يأتى :

- **« يتعين علينا أن نذكر دائما أن الطاقات الروحية التى تستمدها الشعوب من مثلها العليا النابعة من أديانها السماوية ومن تراثها الحضارى قادرة على صنع المعجزات » ٠**

- **« ان الطاقات الروحية للشعوب تستطيع أن تمنح آمالها الكبرى أعظم القوى الدافعة كما أنها تسلحها بدروع من الصبر والشجاعة تواجه بها جميع الاحتمالات وتقهر بها مختلف المصاعب والعقبات » ٠**

- **« واذا كانت الأسس المادية لتنظيم التقدم ضرورية ولازمة فان الحوافز الروحية والمعنوية هى وحدها القادرة على منح هذا التقدم أنبل المثل العليا وأشرف الغايات والمقاصد » ٠**

ففى هذه الفقرات الموجزة من الميثاق تنطوى حكمة من أنفس الحكم التى ينبغى علينا أن نجعلها دائما نصب أعيننا فى حياتنا اليومية وفى مشروعاتنا القومية ٠

الميراث العام المدخر فى تراثنا الحضارى هو خير عاصم لنا فى حياتنا، وهو خير معين لنا فى مواقف الأخطار التى تواجهنا ، وهو خير مشجع لنا على الصبر والاحتمال وبذل الجهود الجبارة فى التغلب على الصعوبات التى تقف فى سبيلنا ٠

ان هذا الميراث الحضارى الخطير مثل ثروة مكدسة من الأجيال

(*) الصادر عام ١٩٦٢ (التحرير) ٠

الماضية مغروسة فى أرضنا لتعيننا على الحياة ، فالجيل الذى يشذ عن قاعدة التضامن مع الأجيال الأخرى يكون عارا على أمته خائنا لها فى أمانة المحافظة على ذلك التراث النفيس ، وهو يعمل على الحاق أشد الأضرار بأمته اذا هو غالى فى شذوذه عن قاعدة التضامن مع أجيال أمته ، فعمل على قطع سلسلة التراث الحضارى القومى الذى فيه سر حياة أمته وسر نموها .

فذلك الجيل الذى يقطع سلسلة حضارة قومه بقصد نزع أمته من جذورها الأصيلة الحضارية أو بقصد الحاق أمته الحاقا أعمى بحضارة أخرى ، يكون بمثابة قطع الشجرة من أصولها ليضعها فى تربة أخرى ، لا تستطيع أن تمد فيها جذورها ، وليست الأمثلة ببعيدة عنا فى البلاد الأخرى الشرقية التى حاول بعض أجيالها المتحمسة للحضارات الأجنبية أن تفارق حضارتها الأصيلة وتلحق بالحضارات الأجنبية التى وهموا أنها تكون خيرا لأمتهم .. فهؤلاء لم يعملوا فى الحقيقة الا على قطع جذور حضارتهم القومية، ولم ينجحوا أى نجاح فى اكتساب جذور جديدة فى الحضارة الأجنبية التى بهرت أعينهم .

ان هؤلاء قد يدركون ، وربما يدركون بعد فوات الوقت المناسب ، انهم قطعوا أمتهم من أصول حضارتها ولم يستطيعوا أن يجدوا لها جذورا جديدة .

وهناك أيضا تلك المشكلة الأخرى للجيل الذى لا يتضامن مع نفسه ، وليست هذه المشكلة بأقل خطرا من المشكلة السابقة التى تحدثنا عنها ، فلنتأمل معا هذه المشكلة فى شيء من الاناة وحسن النية لأنى لا أتحدث عنها الا وقلبى ممتلىء بالرغبة فى التفاهم وحب الخير لأبناء أمتى .

ان كل جيل يكون بنفسه حلقة كاملة تامة فالأفراد فيه لا يضيفون الى التراث الحضارى لأمتهم وهم منعزلون أفرادا ، كل الاضافات التى استطاعت بها الأجيال أن تغنى تراث أمتها الحضارى انما كانت نتيجة عامة للحصيلة النهائية لجهود الأفراد معا وهم متضامنون متعاملون متعاونون .

كل جيل فيه أطفاله وشبابه وكهوله وشيوخه أيضا ، وكل فرد من الجيل يشترك فى الاضافة التى يضيفها جيله الى ذلك التراث ٠

كل طفل يشترك فى هذه الاضافة عندما يتلقى تراثه الحضارى القومى وعندما يقوم بالتفسير الذى يفسر به ، تراث أمته ٠

كل جيل فيه أطفاله وشبابه وكهوله ـ وشيوخه يكون فكرة ايجـــابية عن ذلك التفسير الذى فسر به تراثه القومى ، وقد يضيف من عنده شـيئا من مشاعره ومن آماله ومن نشاط ذهنه ٠

وكل كهل وكل شيخ يفعل ذلك أيضا ، ويضيف الى التراث الحضــارى القومى ما يهديه اليه نضوج فكره ، واعتدال عواطفه ، وسلامة ذهنه ، وقوة تفكيره ، والخطر الذى يهدد الجيل يأتى من ناحية التفكك الذى قد يصيبه ان اختلفت مذاهب أفراده وجماعاته اختلافا يستحيل فيه تفاعل آراء الجميع معا، وتفاعل مشاعر الجميع معا ، فى هذه الحالة تنشأ مئات من الآراء والعقائد والمبادىء ، بل وألوف منها ، بل ملايين منها بقدر عدد أبناء الجيل اذا كانوا متفككين متدابرين يسىء كل منهم الظن بالآخرين ٠

وهذا التفكك يكون فى العادة مقدمة لعجز الجيل كله عن الاضـــافة الى التراث الحضارى ، بل قد يؤدى الى الانقطاع عن التراث الحضارى ، والانعزال عن جذوره وأصوله ، وهذا هو العقم أو الهزال الذى سبق أن تحدثنا عنـــه ٠

كل جيل كما قلنا فيه سلم طويل من الأعمار بين الطفولة والشيخوخة ، وكل درجة فى هذا السلم لها وظيفة فيه ، فلا يصح لجيل أن يغفل مشـــاعر أطفاله ولا أن يعقل ذكاءهم ، وفى الوقت نفسه لا يصح له أن يغفل مشاعر شبابه ولا ذكاءهم ٠

لم يبق اذن الا أن أقول أيضا ان كل جيل لا يصح له أن يغفل مشاعر كهوله ولا شـــيوخه ولا يغفل ذكاءهم ٠

ما دام الجميع مشتركين فى جيلهم ومسئوليات حياتهم فيه ، وما دام الجميع مطالبين بأن يضيفوا مجموعة من نفائس خبراتهم الى التراث العام الذى يورثونه لأجيال المستقبل ، ما دام الجميع مطالبين بذلك فلا غنى عن أن يضع كل من الأفراد والجماعات يديه فى أيدى الجميع متفاهمين ـ ولو مع الاختلاف فى الرأى والشعور ـ متضامنين ـ ولو كانوا مختلفين فى طبيعتهم الخلقية أو الأخلاقية ـ لأن التراث الحضارى الذى يضيفون اليه انما هو الحصيلة الكاملة لما عند الجميع معا ٠

لا يمكن وليس من الطبيعى أن يستأثر فرد أو جماعة بالاضافة الى التراث الحضارى العام مهما بلغ الفرد أو بلغت الجماعة من الذكاء والعبقرية٠ بل ان العبقرى هو الذى يستطيع أن يهب ما عنده ليتفاعل مع الذى عند الآخرين ، ويكون من ذلك التفاعل عنصرا حيا ، يمكن أن يخلد ، وتتكون منه اضافة للجيل كله ٠

هذا هو شأن العباقرة من الأدباء والحكماء والقادة ٠٠ أن يهبوا لجيلهم ما عندهم من نتائج عبقريتهم ليتفاعل ما يهبونه مع الناس جميعا فى جيلهم ، ليتكون من ذلك المجهود المشترك محصول التراث الخالد ، وقد يكون من تمام هذا المعنى أن يكون مما قصدت الآية القرآنية الشريفة :

« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن » ٠

فبهذا الميل الى التفاهم والتشارك والتعاون القائم على احترام كل من عناصر المجتمع للآخرين ، يحدث التضامن بين الجيل كله بجميع أهله على اختلاف درجات سلم الأعمار ، وعلى اختلاف درجات سلم الذكاء واختلاف درجات المشاعر والقيم الأخلاقية والاجتماعية ٠